عبدالوهاب المسيري *

الصهيونية في مائة عام

(ص ١٣٩ -١٦٢)

ملخّص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن حقيقة الصهيونية بأسلوب تحليلي تفسيري بمعزل عن الخطاب التآمري والتعبوي. والأسلوب التفسيري لا يعني رفض الواقع الموضوعي، بل يعني الجمع بين الموضوعية والذاتية، ويحاول المقال أن يطرد الأوهام التي تساور المهزومين بشأن الحركة الصهيونية من قوة وقدرة على التنبؤ.

ويتطرق المقال الى تعريف الصهيونية والتاريخ اليهودي و وَهم الوحدة اليهودية وأسباب ظهور الصهيونية.

في المنهج:

قبل أن ندخل في موضوعنا «الصهيونية في مائة عام»، دعونا نطرد بعض الأوهام التي قد تعوق بحثنا عن قدر من الحقيقة. وأول هذه الأوهام ما أسميه وهم التفسيرية ووهم المعرفة (في مقابل التفسيرية والمعرفة ذاتيهما). ولكي نطرد هذا الوهم لا بد من التمييز بين الخطاب التحليلي التفسيري من جهة، وكل أنواع الخطاب الأخرى التي تهدف إلى «كشف الصهاينة» أو «فضحهم» أو «التشهير بهم»، أو حشد الجماهير وتجنيدها ضدهم. فالخطاب التحليلي التفسيري لا يهدف إلى أي من الأهداف السابقة،

* - باحث مصري متخصّص في القضية الفلسطينية وتاريخ الصهيونية، ومن المنادين ـ رضوان الله عليه ـ بتفكيك دولة إسرائيل العنصرية.

وإنما يهدف إلى تعميق رؤيتنا للعدو حتى نعرفه في كل تركيبته، وبالتالي تزداد قدرتنا على تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية والتنبؤ بها، ومن ثم مقدرتنا على التصدي للعدو.

وثمة مستويات وأشكال مختلفة من الخطاب غير التفسيري، لعل من أكثرها شيوعًا الخطاب التآمري، وهو تصور أن اليهود هم أصل الشر عبر التاريخ، وأنهم لا يكفون عن التآمر ضد كل البشر في كل زمان ومكان. وينطلق الخطاب شبه الديني من نفس منطلقات الخطاب التآمري الذي يذهب إلى أن الشر مسألة متأصلة وراثية في «الطبيعة اليهودية»، وأنه يجري في عروق اليهود، وبالتالي فحربنا ضدهم ستستمر حتى يوم القيامة. وهناك أيضا الخطاب النفسي الذي يطالب أصحابه بضرورة تعميق كراهيتنا لليهود والصهاينة أو الذين يمدون لهم يد العون، إن مشكلتنا مع إسرائيل مشكلة في جوهرها نفسية. أما الخطاب الحقوقي القانوني فيهدف إلى توضيح أن العرب أصحاب حق، وأن قرارات هيئة الأمم المتحدة تساند هذا الحق. ويهدف الخطاب الأخلاقي إلى توضيح أن القضية العربية قضية عادلة، وأن الصهاينة مستعمرون طغاة اغتصبوا الأرض. وهناك الخطاب النصوصي الذي يذهب إلى أنه كي نفهم سلوك اليهود علينا قراءة التوراة والتلمود؛ لأن المستوطنين الصهاينة ـ حسب التصور النصوصي ـ يسلكون حسبما جاء في كتبهم المقدسة وغير المقدسة وأخيرًا هناك الخطاب الإعلامي التعبوي الذي يدعو إلى استخدام الإعلام بشكل مكثف في تعبئة الجماهير العربية وفي تغيير اتجاهات الرأي العام «العالمي».

ومعظم أنواع الخطاب السابقة تنطلق من بعض ثوابت موقفنا من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني: رفض عميق له ـ تعاطف مع الفلسطينيين ـ الإحساس بضرورة مساعدة الفلسطينيين.. إلخ، كما أنها تتحرك في إطار هذه الثوابت، وهو أمر ولا شك محمود، ولكنها مع هذا لا تلقي بأي ضوء جديد أو قديم على بنية الكيان الصهيوني ولا تحاول التنبؤ بخصوص سلوكه. ورغم أهمية بعض أنواع الخطاب غير التفسيري في تجنيد

الجماهير وفي مخاطبة الرأي العام العالمي فإننا يجب أن ندرك أنها لا تفسر شيئًا، فهي «دعوة إلى» اتخاذ خطوات معينة، ولا تهدف إلى «تفسير» الظاهرة الصهيونية.

ويمكنني القول بأننا في واقع الأمر لا يمكن أن نقوم بالتعبئة إلا بعد التحليل والفهم، فالتعبئة لا تتم في فراغ وإنما تعبأ استنادًا إلى وقائع محددة، كما أنها تتحرك نحو اتجاه معين وإلا تحولت إلى تهييج غوغائي وطنين إعلامي، ولكن الخطاب الإعلامي التعبوي وأنواع الخطاب الأخرى تنطلق من بعض القوالب اللفظية الجاهزة والأطروحات الشائعة (دون اختبارها) فتخلق وهم المعرفة.

إن المطلوب هو التوصل إلى معرفة حقيقية تستند إلى رصد دقيق ومركب للواقع. ونحن نذهب إلى أن هناك نوعين من الرصد: الرصد المباشر أو الرصد الموضوعي المتلقى من ناحية، ومن ناحية أخرى الرصد من خلال أنماط متواترة (نماذج تحليلية)، وهذا ما نطلق عليه التفسيرية.

ويفترض الرصد الموضوعي أن عقل الإنسان سلبي متلق، وأن ثمة قانونًا عامًا واحدًا ينطبق على كل الظواهر الإنسانية والطبيعية، وأن الواقع بسيط، وأن الهدف من المعرفة هو نقل الواقع كما هو، ورفض الخصوصية، والتجرد من الذاتية، ومراكمة المعلومات.

أما التفسيرية فترى الواقع بأسره باعتباره مجرد مادة خام تحتاج إلى تفسير. هذا لا يعني رفض الواقع الموضوعي، وإنما يعني فقط عدم تلقيه كما هو بشكل مباشر (موضوعي متلق) وإدراكه بطريقة إبداعية من خلال عملية مركبة من التفكيك والتجريد وإعادة التركيب. فالحقائق ـ حسب تصور المنهج التفسيري ـ توجد جاهزة في الواقع، أما الحقيقية فهي أمر يجرده الإنسان من الحقائق والمعلومات والإحصاءات، ليضعه داخل إطار ينتظم الظواهر المتشابهة. وتتميز التفسيرية بأنها تجمع بين الموضوعية والذاتية؛ إذ يمكننا تجريد ما نراه من أطروحات من الواقع الموضوعي ثم نختبرها على محك الواقع الموضوعي، فإن فسرت هذه الأطروحات الواقع بشكل معقول فهي «أكثر تفسيرية» من تلك الأطروحات التي لا تفسر إلا جوانب محدودة من هذا الواقع. وعملية التفكيك والتجريد وإعادة التركيب يجب أن تهدف إلى الوصول إلى أنماط متكررة يمكن من

خلالها إدراك المعلومات، لا كذرات متناثرة وإنما كشبكة علاقات ذات دلالة. ونحن سنستخدم في بحثنا هذا المنهج التفسيري الذي لا يراكم المعلومات وحسب، وإنما يضعها في سياق تاريخي عام وداخل إطار من الأنماط المتكررة، بحيث تصبح المعلومة جزءاً من إطار متشابك من العلاقات والأنماط.

أما الوهم الثاني الذي ينبغي طرده فهو وهم قوة الصهيونية ومقدرتها على التنبؤ والتحكم بل وأحيانا تحريك العالم بأسره. وحَمَلة الخطاب التآمري يفضلون دائمًا الترويج لهذه المقولة، وإن كان يتبناها عدد كبير من المحللين الذين يسمون بالموضوعيين. وعادة ما يشير هؤلاء إلى نبوءة هرتزل أن الدولة الصهونية ستتحقق بعد خمسين عامًا، ثم يهزون رأسهم في حكمة بالغة ويقولون إنها قد تحققت بالفعل في ذلك التاريخ، ثم يشفعون ذلك بالإشارة إلى دقة التخطيط الصهيوني ومقدرات الصهاينة العجائبية. وهم عادة ما يقولون إن الرؤية الصهيونية مبنية على تحليل موضوعي علمي دقيق صلب للواقع، وبالتالي فالنبوءة الصهيونية هي نبوءات علماء دارسين للواقع، عارفين به. بل إن بعض العرب يعتقد أن كل النبوءات الصهيونية بخصوص الشرق الأوسط تحققت، أو على الأقل آخذة في التحقق.

ولكن لعل كثيرًا ممن يسمون بالموضوعيين هم في واقع الأمر مهزومون مغرمون بجمع المعلومات والنبوءات التي تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه؛ ولذا نجدهم يرصدون نوعًا واحدًا من القرائن، دون غيره أي أنهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية، ولذا فهم لا يذكرون النبوءات الصهيونية الكثيرة التي لم تتحقق. فعلى سبيل المثال، ماذا عن نبوءة هرتزل بأن ألمانيا العظيمة القوية هي التي ستقوم برعاية المشروع الصهيوني وحماية اليهود «ووضعهم تحت جناحيها»، كما قال بالحرف الواحد في يومياته، كلنا يعرف أن ألمانيا العظيمة هذه وضعتهم في أفران الغاز وفتكت بهم وبغيرهم، بعد مرور حوالي ثلاثين عامًا من نبوءته لا أكثر ولا أقل!

وماذا عن نبوءة بنجوريون الذي قال: «إن عقب أخيل [أي نقطة الضعف] في الائتلاف العربي هو سيادة المسلمين في لبنان، وهي سيادة زائفة يمكن بسهولة قهرها.

ويجب قيام دولة مسيحية هناك، بحيث تكون حدودها الجنوبية على نهر الليطاني، وسنكون على استعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة. وبعد أن نكسر الفيلق العربي ونضرب عمان بالقنابل، فسوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا، وإذا اجترأت مصر على محاربتنا فسوف نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا ننهي الحرب ونقضي قضاء مبرمًا على مصر».

ومن الواضح أن الزعيم الصهيوني قد اكتسحته رؤاه الذاتية بل وأسكرته، فلبنان لم تقم فيها دولة مسيحية أو إسلامية وإنما دولة عربية، وهذه الدولة العربية هي أحد مراكز المقاومة والنضال العربي، وحيث إن هذه الدولة «العربية العميلة» التي كان يحلم بها الزعيم الصهيوني لم تقم فهو بالتالي لم يوقع معها معاهدة، بل طردت إسرائيل منها بعد أن قامت المقاومة اللبنانية، بمسلميها ومسيحييها، بالتصدي لها وإحداث نزيف مستمر لها. أما ضرب عمان بالقنابل (بهدف تحطيم إرادة إمارة شرق الأردن) فمسار التاريخ كان من العناد بحيث لم يتحقق، وسوريا لا تزال شامخة أبية، ومصر العربية قد تحملت ضربات القنابل إلى أن انتفضت في أكتوبر ١٩٧٣ وردت الغاصب على عقبيه.

وقد تنبأ الصهاينة أنهم يمكنهم شراء فلسطين. وقد قدر هرتزل ثمنها بمليوني جنيه فقط لا غير!. وكان الزعيم الصهيوني موشيه ليلنبلوم يرى أنه يمكن حل المسألة اليهودية عن طريق شراء فلسطين، وأنه «لا توجد قوة أوروبية تفكر في منع اليهود من شراء أرض أجدادهم مرة أخرى». وكان يوقن تمامًا أن تركيا سترد لهم وطنهم نظير حفنة من الذهب. وهي نبوءة لم تتحقق، فالقوى الأوربية لم تمنعه حقًا من «شراء» فلسطين، ولكن الدولة العثمانية رفضت، كما أن انتفاضات الفلسطينيين المستمرة أثبتت أن فلسطين ليست للبيع أو الإيجار!

وقد تنبأ «الرواد» الصهاينة بأنه سيتم تطبيع اليهود بحيث يصبحون شعبًا واحدًا متحدًا مثل كل الشعوب. ولكن أثبتت الأيام أن التجمع الصهيوني قد فشل في إنجاز ما يسميه الصهاينة «ميزود جاليوت» أي مزج يهود المنفي، وما حدث هو أنه وصلت جماعات يهودية مختلفة ظلت محتفظة بعقائدها الدينية وعاداتها الشعبية؛ ولذا لا يمكن

القول بأن إسرائيل تضم شعبًا إسرائيليًا، وإنما تضم تجمعات إثنية ودينية مختلفة. فيهود الفلاشاه الذين يتحدثون الأمهرية وينتمون إلى الحضارة الأفريقية يختلفون بشكل جوهري عن المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة، وكلا الفريقين يختلف عن المستوطنين المرتزقة الوافدين من الاتحاد السوفييتي الذين يضمون عددًا كبيرًا من اليهود غير اليهود (أي اليهود الذين فقدوا هويتهم الدينية والإثنية) بل ومن الأغيار من غير اليهود. والى جانب كل هؤلاء توجد الكتلة البشرية الوافدة من المغرب، والتي تشعر بكيانها المستقل كمًا وكيفًا، وتحاول أن يُسمع صوتها داخل النظام السياسي الإسرائيلي، بل يقال إنها بسبب يهوديتها الواضحة، تفكر جديًا في قيادته لتحل محل القيادة العمالية العلمانية المهترئة. ولم يفشل الصهاينة في مزج المنفيين وحسب، ولا في تخليق شعب واحد، بل فشلوا تمامًا في تعريف اليهودي.

كما تنبأ الصهاينة بأن الدولة الصهيونية ستكون بمنزلة مركز روحي يمنع يهود العالم من الاندماج في مجتمعاتهم وبالتالي يحافظ على هويتهم ولكن الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي يتجه نحو الحضارة السائدة، وهي حضارة لا تساعدهم البتة على تطوير جوهرهم اليهودي المزعوم؛ لأنها حضارة عملية علمانية. كما أن أعدادًا كبيرة من الشباب اليهودي المتمرد ينخرط في سلك الحركات اليسارية، وهي حركات دولية معادية للمفاهيم الصهيونية الضيقة، خاصة أن الصهيونية الآن غير قادرة على أن تبرز واجهة يسارية (كما كانت تفعل في الماضي)؛ ولذا فهي تقدم إسرائيل باعتبارها بلد المشاريع الرأسمالية الخاصة. ولهذا يكون قد فشل الصهاينة أيضًا في تحرير اليهود من منفى الروح، ولم تنجح الصهيونية في منع الشباب اليهودي من الانضمام للحركات الاشتراكية اليسارية (كما كانت تزعم).

بل يلاحظ داخل المستوطن الإسرائيلي أن نموذج الصابرا الجديد (أي الشباب الإسرائيلي الذي وُلد على أرض فلسطين المحتلة) يكن الاحتقار الشديد لنموذج يهودي الدياسبورا (أي يهود العالم خارج فلسطين) الذي تتسم حياته بالسلبية وبالتقبل لحكم

الجوييم (الأغيار). وقد ظهر هذا الاحتقار بصورة خاصة أثناء محاكمات أيخمان في تل أبيب، حيث تبين الجيل الجديد الإسرائيلي كيف أن اليهود ذبحوا ذبح الشاة (كما كانت تدعي الدعاية الصهيونية حينذاك) دون مقاومة أو كفاح. وبينما يتهم الصهاينة يهود المنفى بأنهم لا يشتغلون إلا بالأمور الكتابية والفكرية، نجد أن الصابرا معاد للعقل (أي أنه صهيوني حتى النخاع)، كما أنه معاد للفكر الإنساني عامة، وهو في هذا نتاج حقيقي للفكر الصهيوني أيضًا، خاصة الصهيونية السياسية العملية، التي تعادي الأخلاق والفكر والتنظير، مفضلة اللجوء إلى الفعل، والفعل السريع الذي يخلق «حقائق جديدة» على حد تعبير موشي ديان. وجيل الصابرا هو جيل حضارة التكنولوجيا الذي لا يكترث بالتراث، كما أنه جيل تسيطر عليه الثقافة الشعبية ذات الصبغة الأمريكية؛ ولذا تنتشر في إسرائيل أفلام رعاة البقر وأفلام الجريمة والإثارة الجنسية.

ومؤخرًا تنبأ بعض الخبراء الصهاينة بأن يهود الأرجنتين الذين يبلغ عددهم حوالي ٣٠٠ ألف (وبالتالي هم أكبر تجمع يهودي في أمريكا اللاتينية) سيهاجرون إلى إسرائيل. وأمريكا اللاتينية تعتبر إحدى مناطق النزوح، أي إنها بلد طاردة لليهود وليست جاذبة لهم. وهذا يعود لعدة أسباب من بينها رفض الحضارة اللاتينية لليهود ومقدرتها في الوقت نفسه على هضمهم، ومن بينها أيضًا تقاليد معاداة اليهود الراسخة، وعدم الاستقرار السياسي أو الاقتصادي لبلاد القارة. وقد جاء انتخاب منعم رئيسا للأرجنتين، بخلفيته الإثنية العربية، فزاد من مخاوف أعضاء الجماعة اليهودية فيها، وبخاصة أن منافسه ألفونسين كان متعاطفًا مع أعضاء الجماعة. لكل هذا أطلق الصهاينة النبوءات بأن هجرة جماعية ستبدأ لا محالة من الأرجنتين إلى إسرائيل.

ولكن الذي حدث بالفعل خيب أمل الصهاينة؛ إذ لم يهاجر سوى بضع مئات، عادوا بعدها إلى بلادهم، وتوجه بعضهم إلى الولايات المتحدة، البلد الذي يشكل نقطة الجذب الأساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من يهود العالم، وصرح دوف شيكلانسكي، المتحدث باسم الكنيست وأحد زعماء الليكود أن يهود الأرجنتين لم يستمعوا إلى نصائحه

(نبوءاته) الصهيونية (ميامي جويش تلغراف ٣ أغسطس ١٩٨٩).

وفي عام ١٩٨٢ صرح متيتياهو دروبلس (رئيس قسم الاستيطان السابق في الوكالة اليهودية) بأن عدد المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية سيصل إلى ١٠٠ ألف عام ١٩٨٧ وأنه بحلول عام ٢٠١٠ ستضم الضفة الغربية ١/٢٥٠/٠٠٠ يهودي! ونشرت النبوءات بحذافيرها في كثير من الصحف العربية، وزينت المعلومة صفحاتها وعناوينها الرئيسية. ولكن بحلول عام ١٩٨٧ لم يكن عدد المستوطنين قد تجاوز ٥٠- ٦٠ ألفًا، أي أن نبوءة دروبلس أو مخططه فشل تمامًا! ومع هذا صرح هذا المسؤول الصهيوني نفسه بأن هناك خطة مدروسة لزيادة عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد السكان العرب في نهاية القرن الحالي، أي ٦٠٠ ألف مستوطن. ثم أشار إلى أن هذه الخطة تفترض هجرة مليون ونصف مليون يهودي من الاتحاد السوفيتي.

وقد نشرت النبوءة بحذافيرها مرة أخرى في كثير من الصحف العربية، كما زينت المعلومة الجديدة صفحاتها وعناوينها الرئيسية، ولكن لم يكلف أحد خاطره بأن يذكر كذبة دروبلس السابقة حتى نتحفظ تجاه تصريحاته (نبوءاته) الجديدة، ولم يطرح أحد احتمال أنه قد يكون مثل سائر البشر يخلط الحقائق بالأماني والحقيقة بالوهم، وأنه قد لا يختلف كثيرًا عن المخابرات الإسرائيلية التي استمرت في إنكار وجود الانتفاضة بعد شهر من اندلاعها، والتي أعلنت أنه تم إخمادها بشكل نهائي ـ عشر مرات قبل أن يتحققوا أنها ظاهرة مستمرة.

ولكن من أهم أوجه فشل الصهاينة في التنبؤ هو سقوط الأيديولوجية الصهيونية ذاتها كإطار يدرك المستوطنون الواقع من خلاله، وكرؤية توجه سلوكهم وتحدد أولوياتهم. فلم يعد يهود العالم يرون أن الصهيونية أيديولوجية لها أي مغزى بالنسبة لحياتهم في أوطانهم، ولم يعد المستوطنون يجدون أن لها علاقة بواقعهم، وهذا الجانب من الفشل الصهيوني من الأهمية بمكان، حتى إننا سنتناوله فيما بعد بالتفصيل (مع بعض جوانب الأزمة الصهيونية الأخرى) في نهاية هذا البحث.

مصطلح الصهيونية واختلاط الدلالة

بعد أن طردنا هذين الوهمين أو الشبحين اللذين سيطرا على العقل العربي يمكننا أن نتوجه للظاهرة الصهيونية، وأن نحاول تعريفها. ولا بد أن نقرر ابتداءاً أن المصطلحات في العلوم الإنسانية تتسم بإبهامها إلى درجة أنه يصعب على العاملين في نفس الحقل المعرفي أن يتفقوا على تعريف واحد لنفس المصطلح؛ ولذا نجد أن مصطلحًا محوريًا مثل الطبيعة له عدة معان مختلفة، متضاربة أحيانًا إلى درجة أن البعض ينادي بالابتعاد تمامًا عن التعريف الثابت (الجامع المانع) والاكتفاء بالتعريفات الإجرائية المتغيرة (أي أن يقوم كل باحث بتعريف المصطلحات التي يستخدمها في بحثه، وعليه أن يكون متسقًا مع نفسه بأن يلتزم بهذه التعاريف، وعلى قرائه ونقاده ألاّ يحاسبوه إلاّ في إطارها) ويزداد الأمر إبهامًا واختلاطًا حين يكون المصطلح المطلوب تعريفه له مضمون أيديولوجي، إذ إن من يقوم بعملية التعريف تتحكم فيه تحيزاته وأهواؤه وولاءاته الأيديولوجية.

الصهيونية مصطلح أقل ما يمكن أن يوصف به أنه مصطلح مختلط الدلالة ذو مضمون أيديولوجي فاقع، وتشير كلمة صهيون في التراث الديني اليهودي إلى جبل صهيون والقدس، بل إلى الأرض المقدسة ككل، كما تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود باعتبارهم جماعة دينية.

وتشير عبارة بنت صهيون إلى اليهود أنفسهم، والعودة إلى صهيون فكرة محورية في النسق الديني اليهودي، إن أتباع هذه العقيدة يؤمنون بأن الماشيح (المسيح المخلص اليهودي) سيأتي في آخر الأيام حينما يشاء الإله ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض ـ العاصمة) ويحكم العالم، فيسود العدل والرخاء، وقد وردت إشارات شتى في الكتاب المقدس إلى هذا الارتباط بصهيون الذي يطلق عليه عادة حب صهيون، وهو حب يعبر عن نفسه من خلال الصلاة والطقوس الدينية المختلفة، وفي أحيان نادرة على شكل الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها بغرض التعبد وحسب؛ ولذا كان المهاجرون اليهود الذي يستقرون هناك لا يعملون، ويعيشون على الصدقات التي يرسلها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وكان العيش في فلسطين يعد عملا من أعمال التقوى لا

عملا من أعمال الدنيا، جزاؤه في الآخر أو في آخر الأيام. بل إن اليهودية الحاخامية (الأرثوذكسية) كانت تحرم محاولة العودة الجماعية الفعلية إلى فلسطين وتعتبرها تجديفًا وهرطقة ومن قبيل دوحيكات هاكتس، أي التعجيل بالنهاية، ورفض مشيئة الإله. فاليهودية تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الرب وبطريقته، وأنها ليست فعلاً بشريًا يتم على يد البشر وبمشيئتهم وحسب هواهم وبإرادتهم. كل هذا يعني أن ثمة فرقًا شاسعًا بين مفهوم العودة في سياقه الديني، وفكرة العودة الاستيطانية الصهيونية.

والشيء نفسه ينطبق على مفهوم الشعب اليهودي. فاليهودية الحاخامية (أو المعيارية – أي اليهودية منذ القرن الخامس الميلادي حتى نهاية القرن التاسع عشر) تذهب إلى أن اليهود ليسوا شعبًا بالمعنى العرقي أو البيولوجي أو العلماني للكلمة، وإنما هم جماعة دينية يؤمن أعضاؤها بعقيدة دينية ويلتزمون بمعاييرها الأخلاقية.

وغني عن القول إن هذا التعريف للشعب اليهودي يختلف بشكل جوهري عن تعريف المفكر اليهودي النمساوي نيثان بيرنباوم الذي قام بنحت مصطلح صهيونية من كلمة صهيون. وقد بين بيرنباوم بما لا يقبل الشك أن الصهيونية حركة علمانية، معادية لليهودية، ترفض المعتقدات المشيحانية والعناصر العجائبية الأخروية (أي العودة في آخر الأيام بعد مقدم الماشيح) وتحاول أن تصل إلى أهدافها من خلال العمل السياسي المنظم لا من خلال الصدقات، ومن خلال إرادة البشر لا إرادة الإله. في هذا الإطار لم يعد اليهود جماعة دينية يؤمن أعضاؤها بعقيدة دينية، وإنما أصبحوا جماعة عرقية يربطهم رباط العرق والدم والانتماء الإثني، وأصبحت الصهيونية هي الدعوة القومية اليهودية التي جعلت من السمات العرقية اليهودية (ثم السمات الإثنية في مرحلة لاحقة) قيمة نهائية مطلقة تحل محل الدين اليهودي مصدرًا للوحدة والتضامن بين اليهود.

وتعريف بيرنباوم للصهيونية (الذي نشره في مجلة الانعتاق الذاتي في أبريل ١٨٨٠، وشرح معناه في خطاب له بتاريخ ٦ فبراير ١٩٨١) هو في واقع الأمر تعريف للآمال الصهيونية قبل أن تتحول إلى واقع. وهو لا يستند إلى دراسة تحليلية مركبة لتاريخ

الفكر الصهيوني أو لواقع الجماعات اليهودية في العالم، ويبدو أن بيرنباوم لم يكن مدركًا لتضمينات تعريفه الاجتماعية والتاريخية، فإذا كان اليهود حقا شعبا وليسوا جماعة دينية فهم من ثم لا ينتمون إلى أوطانهم وإنما إلى «وطنهم القومي»، أي فلسطين (التي تسمى في العبرية إرتس يسرائيل). وهذا يعني بطبيعة الحال افتراض ضرورة نقل اليهود إلى فلسطين، وبالتالي حتمية إخلاء هذا الوطن القومي من السكان الذين قد «يتصادف» وجودهم فيه (وقد اكتشف بيرنباوم ذلك فيما بعد؛ فتمرد على الحركة الصهيونية ورفضها وانضم إلى تنظيمات مختلفة للتصدي لها).

ولا تختلف التعريفات التي ترد في المعاجم الغربية كثيرًا عن تعريف بيرنباوم، فمعظمها يستخدم ديباجات معسولة، تتجاهل الواقع فتصف الصهيونية بأنها «الحركة السياسية الرامية إلى عودة اليهود إلى وطن أجدادهم (إرتس يسرائيل) حسبما جاء في الوعد الإلهي والآمال المشيحانية لليهود! أي أن ثمة ديباجات دينية تم إدخالها حتى يتم تخبئة المضمون العنصري والإرهابي للصهيونية.

وتزداد الديباجات كثقافة على مر الأيام، فهناك من يذهب إلى أن الصهيونية هي حركة تهدف إلى إنقاذ اليهود من هجمات المعادين لليهود في أوروبا. ويذهب آخرون إلى أن إنشاء الدولة الصهيونية يرجع إلى الإحساس بالذنب والندم الذي يشعر به العالم الغربي تجاه اليهود بعد أن اضطهدهم وسامهم صنوف العذاب عبر التاريخ الغربي كله. وطبعا هناك الشعار الصهيوني المعروف: «شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب»، الذي يعني أن الصهيونية هي الحركة التي ترمي إلى إعادة شعب هائم على وجهه في بقاع الأرض، إلى فلسطين التي لا يقطنها أحد.

إن القيمة التفسيرية لمثل هذه التعريفات ضعيفة، بل وتكاد تكون منعدمة. فهي تعريفات ينحصر نطاقها داخل إطار الدافع الديني أو الإثني الذي حدا بقلة قليلة من أعضاء الجماعات اليهودية إلى الهجرة والاستيطان في فلسطين وأغفل دوافع الغالبية الساحقة منهم (تحقيق الحراك الاجتماعي داخل إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الإحلالي الغربي). كما أن هذه التعريفات لا تتوجه البتة لقضية البنية التي تشكلت في

الواقع بعيدًا عن الدوافع، دينية كانت أم إيمانية. ولهذا نجد أنها لا تفسر مقاومة السكان الأصليين للمستوطنين الصهاينة ولا الحروب المستعرة المستمرة بين الدولة الصهيونية وجيرانها، ولا تتوجه من قريب أو بعيد لقضية اللاجئين الذين يملأون المخيمات ويطالبون بالعودة لوطنهم (الذي يدعي الصهاينة أنه وطن أسلافهم)، ولا إلى حقيقة أن غالبية الشعب اليهودي لا تحب الإقامة في وطنها القومي المزعوم! ولذا نجد أنه بعد إنشاء الدولة الصهيونية بخمسين عامًا لا يزال الوطن القومي اليهودي هو وطن الأقلية، فالأغلبية الساحقة ليهود العالم على ما يبدو تفضل حالة المنفى والشتات!

ومما زاد الأمر إبهامًا واختلاطًا التطور اللاحق للحقل الدلالي لكلمة صهيونية؛ إذ أصبح المصطلح يشير إلى حركات ومنظمات سياسية غير متجانسة (بل متناقضة أحيانًا) في مصالحها وأهدافها ورؤيتها للتاريخ، أو في أصولها الإثنية أو الدينية أو الطبقية. ولعله لهذا السبب كثيرًا ما يستخدم مصطلح صهيونية مع صفة تحد من حقله الدلالي أو توسعه كأن يقال: الصهيونية العامة، والصهيونية العمالية، والصهيونية الثقافية، والصهيونية الروحية، والصهيونية العلمانية، والصهيونية الدينية، والصهيونية الإقليمية (التي يطلق عليها أحيانا اصطلاح صهيونية بدون صهيون، أي إنشاء الدولة الصهيونية في أي بقعة خارج فلسطين، مما يشير إلى الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية المجردة للمشروع الصهيوني إن أسقطت ديباجاته اليهودية، وقد ظهر ردًا على هذا مصطلح صهيونية صهيون)... إلخ.

ولكن من أهم المصطلحات هو ما يسمى صهيونية الدياسبورا أو الشتات (أي الجماعات اليهودية في العالم)، وهي صهيونية اليهودي الذي يزعم أنه صهيوني متحمس لصهيونيته متمسكًا بها، وأنه يدين بالولاء للوطن القومي اليهودي، ويؤمن بأن الاستيطان الصهيوني هو الحل الوحيد لمشاكل اليهود، ولكنه رغم كل هذا يرفض أن يهاجر إلى فلسطين ويستوطن فيها، مؤثرًا عليها وطنه الحقيقي الذي يعيش فيه. وقد نحت المفكر الصهيوني العمالي بورخوف مصطلح صهيونية الصالونات، حسبما يروق لها.

ورغم هذا الاهتمام الظاهر إلا أنها لا تكترث كثيرًا بالاستيطان. (ولـذا فـنحن نـسميها صهيونية توطينية في مقابل الصهيونية الاستيطانية).

التاريخ اليهودي ووهم الوحدة اليهودية

يجب أن نخترق السحب الكثيفة من الـديباجات والاعتـذاريات لنـصل إلى المفهـوم الأساسي الكامن وراء التعريفات الصهيونية المختلفة للصهيونية، وسنكتشف علـى التـو أن هذا المفهوم هو التاريخ اليهودي (وتنويعات مختلفة عليه). ويرى الصهاينة أن الحركة الصهيونية بدأت مع التاريخ اليهودي نفسه، وأنها لازمت اليهود عبر تاريخهم بعد تحطيم الهيكل، وذلك لسببين: واحد سلبي، والآخر إيجابي. أما السلبي، فهو ظاهرة العداء لليهود والمذابح والاضطهاد اللذين تعرض لهما اليهود في كل مكان وكل زمـان، وهـي ظـاهرة حتمية أزلية من المنظور الصهيوني. وأما الـسبب الإيجـابي، فهـو الرغبـة العارمـة لـدى اليهودي في العودة إلى فلسطين (أرض الـوطن ـ أرض الأجـداد والأسـلاف ـ الـوطن القومي ـ أرض الميعاد) حيث إنه يشعر بالاغتراب العميق في أرض المنفى (الأمر الـذي أدى إلى إفساد الشخصية اليهودية).

وتعود هذه الرغبة إلى أن اليهود، من منظور صهيوني، يشكلون قوميـة (أيـن فولـك Ein Volk في عبارة هرتزل) رغم أنهم لا يوجدون في مكان واحد ولا يتحدثون لغة واحدة، ولا يتسمون بسمات عرقية أو نفسية واحدة، ولا يخـضعون لظـروف اقتـصادية واحدة. وقد بدأت المسألة اليهودية ـ حسب تصورهم ـ يـوم أن تـرك اليهـود وطنـهم قسرًا. والصهيونية هي التي ستضع نهاية لهذا الوضع، وهي ستفعل ذلك عن طريقـة آليـة جديدة، فهي ترفض سلبية اليهودية الحاخامية، وخنوع الشخـصية اليهوديـة، وبالتـالي سوف تحرض اليهود على العودة بأنفسهم إلى فلسطين ليحققوا تطلعهم القومي، وسـتقوم بتنظيمهم لتحقيق هذا الهدف. ولكل هذا، تنظر الصهيونية إلى نفـسها باعتبارهـا التعـبير الحقيقي والوحيد عن مسار التاريخ اليهودي.

لكن هذه الرؤية الصهيونية لتاريخ الصهيونية ليست ذات مقدرة تفسيرية عالية؛ إذ إنها تفشل في أن تفسر لِمَ ظهرت الصهيونية بين اليهود في أوروبا في أواخر القرن التاسع، ولِمَ لمْ تظهر قبل ذلك التاريخ في مكان آخر. ولو كان سبب ظهور الصهيونية هو عداء الأغيار لليهود ورغبتهم العارمة في العودة، لكان الأولى أن تظهر الصهيونية إبان حروب الفرنجة على سبيل المثال. وكيف نفسر ظهور الفكر الصهيوني في الأوساط الاستعمارية الغربية وهم لا يدينون باليهودية ولا يوجد عندهم أي تطلع للعودة ولم يتعرضوا لاضطهاد الأغيار؟

إن مفهوم مصطلح التاريخ اليهودي يفترض أن ثمة تاريخًا يهوديًا واحدًا مستقلا عن تواريخ جميع الشعوب والأمم. وهو تاريخ يفترض فيه أنه يضم اليهود وحدهم (الذين يشار إليهم باعتبارهم الشعب اليهودي)، وهم يتفاعلون داخله مع بعضهم بعضًا، ومع شعوب الأرض الأخرى باعتبارهم كتلة بشرية واحدة متماسكة لها سماتها الثقافية. ومفهوم التاريخ اليهودي هذا مفهوم محوري في العقل الغربي، ينبع من إيمان الغرب بالعهد القديم، وبأن التاريخ الديني المقدس الذي ورد فيه هو في واقع الأمر تاريخ دنيوي، وتستند جميع المفاهيم الخاصة بالاستقلال اليهودي والوحدة اليهودية إلى مفهوم التاريخ اليهودي هذا.

ولكن من الثابت تاريخيًا أن الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم كانت توجد في مجتمعات تسودها أنماط إنتاجية وبنى حضارية ورؤى للكون تختلف باختلاف الزمان والمكان. فيهود الفلاشاه يعيشون داخل مجتمع قبلي زراعي بدائي، ويتحدثون الأمهرية، ويتعبدون بالجعيزية، ولا يعرفون العبرية ولا اليديشية. أما يهود الولايات المتحدة فيعيشون في مجتمع صناعي يقال له متقدم ويتحدثون الإنجليزية. ويهود اتحاد دول الكومنولث (الاتحاد السوفيتي سابقًا) يتحدثون لغات عديدة من بينها الروسية والأوكرانية والتركية واليديشية. وقد اكتسب كل فريق من هؤلاء خطابه الحضاري ورؤيته للكون من المجتمع الذي يعيش فيه. ويتأثر أعضاء كل جماعة بأحداث التاريخ الذي يتحركون داخل أطره ويتفاعلون معه (سواء كان التاريخ الأفريقي أو الأمريكي

أو الروسي)؛ ولهذا نجد أن رؤية اليهودي الإثيوبي للكون تختلف عن رؤية اليهودي الأمريكي أو الروسي له، وأن سلوك كل منهما يختلف عن الآخر.

ويتبدى الاختلاف في علاقة كل جماعة يهودية بالدولة الصهيونية، فقد لوحظ أن معظم يهود الفلاشاه هاجروا ككتلة بشرية إلى إسرائيل، بينما يحجم يهود الولايات المتحدة عن الهجرة إليها إلا بأعداد صغيرة ليست لها أية أهمية اقتصادية، وحينما يهاجر يهود دول اتحاد الكومنولث فإن غالبيتهم تبذل قصارى جهدها للهجرة إلى الولايات المتحدة، فإن أخفقت جهودهم فإنهم يهاجرون إلى إسرائيل كارهين صاغرين.

إن حاولنا تفسير أنماط الهجرة هذه بالعودة إلى التوراة والتلمود والتاريخ اليهودي (أو أية عناصر مشتركة بين هذه الجماعات اليهودية) لأخفقنا تمامًا، ولكننا بوسعنا أن نفهم هذه الأنماط بالعودة إلى حركيات المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها، والى آليات الطرد (في المجتمع الأصلي) والجذب (في التجمع الصهيوني). ويمكن القول بأن يهود الفلاشاه قد هاجروا إلى إسرائيل بسبب الحركة الطاردة في مجتمعهم (المجاعة – حالة الحرب التي دامت عدة سنوات) والحركة الجاذبة إلى إسرائيل (تحقيق مستوى اقتصادي أحسن). أما يهود الولايات المتحدة فلا توجد حركة طاردة في مجتمعاتهم، ولا تشكل إسرائيل بالنسبة لهم قوة جذب كبيرة. ويختلف وضع يهود دول اتحاد الكومنولث، فثمة حركة طاردة في مجتمعاتهم، ولكن تشكل الولايات المتحدة بالنسبة لهم نقط جذب تفوق قوتها كثيرًا الدولة الصهيونية. ومن هنا نمط هجرة أعضاء كل جماعة.

ولأن المقدرة التفسيرية لمفهوم التاريخ اليهودي ضعيفة، بل تكاد تكون منعدمة، فقد يكون من المفيد ألا نتحدث عن اليهود على وجه العموم، وإنما عن الجماعات اليهودية، وألا نشير إلى التاريخ اليهودي بشكل مطلق وإنما إلى تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية (إلا إذا تطلب السياق غير ذلك)، ولا نتحدث عن الشتات أو المنفي، وإنما عن انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أرجاء العالم. أي أننا يجب أن ننظر إلى كل جماعة

يهودية على حدة، ونحاول تفسير سلوك أعضائها في إطار سياقها الحضاري والتاريخي المتعين، فتاريخ كل جماعة يهودية هو جزء لا يتجزأ من تاريخ المجتمع الذي تعيش فيه.

أسباب ظهور الصهيونية

إن التوصل لهذه الحقيقة البسيطة يجعلنا نضع الصهيونية في سياقها الحقيقي، أي التاريخ الغربي، ونبحث عن أسباب ظهورها داخل هذا السياق دون أن نهمل العناصر اليهودية. ولنبدأ بتلك العناصر الكامنة في الحضارة الغربية التي لم تؤد إلى ظهور الصهيونية ومع هذا خلقت التربة الخصبة لظهورها (فيما يسميه ماكس فيبر التبادل الاختياري elective affinity).

١ – أدرك العالم الغربي أعضاء الجماعات اليهودية فيه لا باعتبارهم أقلية دينية أو حتى إثنية، وإنما باعتبارهم شعبًا عضويًا منبوذًا، وهو مصطلح مفهوم توجد عناصره داخل الخطاب الحضاري الغربي. والشعب العضوي (بالألمانية: فولك Volk) هو شعب يرتبط أعضاؤه فيما بينهم وبأرضهم بأواصر عضوية لا يمكنهم الفكاك منها. ونحن نذهب إلى أن الحضارة الغربية ترى اليهود لا باعتبارهم مجرد أقلية أو جماعة دينية، وإنما باعتبارهم أعضاء في شعب عضوي له صفاته الخاصة بل والفريدة، المقصورة عليهم. وبعض هذه الصفات إيجابية، لكن معظمها ـ في المنظور الغربي ـ سلبي ومن أهمها أن اليهود يرتبطون عضويًا بفلسطين، ومن ثم فهم لا ينتمون إلى التشكيل الحضاري الغربي، ويقفون على هامش التاريخ الغربي، ويشكلون عناصر طفيلية لا جذور لها، يجب أن تنبذ، وأن تنقل خارج التشكيل الحضاري الغربي.

٢– نظر العالم الغربي إلى أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم وسيلة لا غاية. ففي الصياغة الدينية الكاثوليكية يعتبر اليهود شعبًا شاهدًا تدل ضعته وتدنيه على عظمة الكنيسة وانتصارها. والصياغة البروتستانتية تعتبر اليهود عنصرًا ضروريًا في عملية الخلاص التي لا يمكن أن يتم إلا بإرجاعهم إلى فلسطين وتنصيرهم (وهذا ما يسمى «العقيدة الاسترجاعية») ولا تختلف الصياغة العلمانية اللادينية كثيرًا عن ذلك؛ إذ ينظر

الغرب لليهود باعتبارهم عنصرًا يمكن استخدامه في المشاريع التجارية والاستيطانية لما لهم من قدرات تجارية خاصة، فهم مادة بشرية يمكن توظيفها لصالح الغرب.

٣- فشلت المسيحية الغربية في التوصل إلى رؤية واضحة لوضع الأقليات على وجه العموم ورؤيتها لليهود على وجه الخصوص، الذين نظرإليهم باعتبارهم قتلة المسيح. وقد أدرك الغرب الجماعات اليهودية داخل إطار العقيدة الألفية والاسترجاعية، وهي الفكرة الدينية التي تذهب إلى أنه كيما يتحقق العصر الألفي، وكيما تبدأ الألف السعيدة التي يحكم فيها المسيح (الملك الألفي)، لا بد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيدًا لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركز وعصب العقيدة الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار القديم أو الأول (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني). ولذا، فإن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تسقط حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ولذا، فإن كل من يقف في وجه هذه العودة يعتبر من أعداء الإله، ويقف ضد الخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، هي عقيدة صهيونية تفترض استمرارًا كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تمامًا. ومع هذا يلاحظ أن هذه العقيدة معادية لليهود لأن مركزيتهم في الدراما الكونية نابعة من كونهم تجسيدًا للشر في التاريخ؛ ومن ثم فإن تنصرهم (ونهاية التاريخ) شيء أساسي للخلاص.

الجماعة الوظيفية النافعة

من أهم العناصر التي خلقت تربة خصبة لظهور الصهيونية وضع اليهود كجماعة وظيفية داخل المجتمع الغربي (كأقنان بلاط ـ يهود بلاط ـ يهود أرندا ـ صغار تجار

ومرابين). والجماعات الوظيفية هي مجموعات بشرية صغيرة يقوم المجتمع بإسناد وظائف شتى إليها يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة. فقد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سلم القيم السائد (التنجيم ـ البغاء ـ الربا)، وقد تكون متميزة ومهمة (الطب، وخصوصا أطباء النخبة الحاكمة ـ القتال)، وقد يتطلب الاضطلاع بها قدرًا عاليًا من الحياد والتعاقدية؛ لأن المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحمه ومثالياته (التجارة والربا).

وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى (الحاجة لمستوطنين جدد لتوظيفهم في المناطق النائية – خبرات غير متوفرة ـ الحاجة إلى رأس مال). كما أن المجتمع يقوم بإسناد الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك ـ طبيبة ـ السفراء والجواسيس) إلى أعضاء الجماعات الوظيفية. ويمكن أن تكون الوظيفة التي تسند إلى أعضاء الجماعة الوظيفية مشينة ومتميزة وحساسة في آن واحد (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم). كما أن المهاجرين عادة ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد)؛ لأن الوظائف الأساسية عادة ما تكون قد شغلت من قبل أعضاء المجتمع المضيف. ويحاول الاستعمار دائمًا أن يحوّل أعضاء الأقليات إلى جماعات وظيفية تضطلع بوظائف يسندها إليها وتتمتع بمزايا تقدمها لها حتى تدين له بالولاء.

ويتوارث أعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها، بل ويتوحدون معها وفي نهاية الأمر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم منها، وهي عملية يساعد عليها مجتمع الأغلبية؛ لأنه يعرف عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته الكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية إنسانًا ذا بعد واحد، يمكن اختزال إنسانيته إلى هذا البعد أو المبدأ الواحد وهو وظيفته.

ويدخل أعضاء المجتمع المضيف مع أعضاء الجماعة الوظيفية في علاقة تعاقدية نفعية محايدة رشيدة واضحة لا تركيب فيها ولا إبهام، ويقوم كل طرف في العلاقة بحوسلة الطرف الآخر (تحويله إلى وسيلة)، والنظر إليه باعتباره وسيلة لا غاية، وباعتباره مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها. ويتم عزل أعضاء الجماعة الوظيفية عن المجتمع المضيف، فيتصورون أنهم فقدوا الصلة بالزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما؛ ومن ثم غالبًا ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفيًا بوطن أصلي (صهيون – الصين ـ العائلة) يصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة، ويتصورون أنهم جزء من تاريخه وتراثه، فيتعمق شعورهم بالغربة نحو المجتمع المضيف، ويعيشون فيه دون أن يكونوا منه، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ). ولكن الجماعة الوظيفية (والوظيفة ذاتها) هي، في واقع الأمر، موضع الولاء الفعلي والمباشر لعضو الجماعة الوظيفية، فهي أساس وجوده وهويته. إلا أن المعجم الحضاري لأعضاء الجماعة الوظيفية لا يختلف في واقع الأمر عن معجم مجتمع الأغلبية إلا في بعض التفاصيل الخاصة، فهم آلة لا وطن لها اسمًا، ولكنهم يعيشون فعلاً في المجتمع المضيف، يؤدون وظيفتهم فيه بشكل يومي؛ ومن ثمّ فهوّيتهم هوية وهمية.

يؤدي هذا الوضع إلى أن أعضاء الجماعة الوظيفية يصبحون منبتي الصلة بالجماهير، ويزدادون اقترابًا من النخبة الحاكمة التي تستخدمهم كأداة لقمع جماهير المجتمع ولامتصاص ما قد يتراكم من ثروات وفوائض لديهم. وبذلك تصبح الجماعة اليهودية في المجتمع وليست منه (وهذا هو تمامًا وضع الشعب العضوي المنبوذ والشعب الشاهد والجماعة التي توظف في عملية الخلاص النهائي).

هذه الرؤية التي تحوسل اليهود (أي تحولهم إلى وسيلة وتراهم باعتبارهم جماعة بشرية في خدمة هذا الهدف أو ذاك) هي رؤية متأصلة في الوجدان الغربي حتى إنه حين بدأت مناقشة قضية عتق اليهود وإعطائهم حقوقهم. دارت المناقشة في إطار فكرة المنفعة، أي مدى نفع اليهود للمجتمعات الغربية. فحينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم

من منظور ضررهم وعدم نفعهم، دافع أعضاء الجماعات اليهودية عن أنفسهم لا من منظور حقوقهم كبشر، وإنما من منظور نفعهم أيضًا. فكتب الحاخام سيمون لوتساتو عام ١٨٣٦ كتابًا بالإيطالية تحت عنوان *مقال عن يهود البندقية* عدد فيه الفوائد الكثيرة التي يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم قد طوروا فروعًا مختلفة من الاقتصاد، يضطلعون بوظائف لا يمكن لغيرهم الاضطلاع بها مثل التجارة، ولكنهم على عكس التجار الأجانب خاضعون لسلطة الدولة تمامًا، ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقومون بشراء العقارات؛ ومن ثم لا ينقلون أرباحهم خارج البلاد. إن اليهود من هذا المنظور يشبهون رأس المال الوطني (مقابل رأس المال الأجنبي) لا بد من الحفاظ عليه والدفاع عنه.

وقد تبنى مِنَسَّى بن إسرائيل المنطق نفسه في خطابه لكروميل حتى يسمح لليهود بالاستيطان في انجلترا. كذلك تبنى أصدقاء اليهود المنطق ذاته، فطالب جوسيا تشايلد رئيس شركة الهند الشرقية عام ١٩٦٣ بإعطاء الجنسية لليهود الموجودين في انجلترا بالفعل. وأشار إلى أن هولندا قد فعلت ذلك وازدهر اقتصادها بالتالي. كما كتب جون تولاند عام ١٧١٤ كتيب مهم للغاية عنوانه *الأسباب الداعية لمنح الجنسية البريطانية لليهود الموجودين في بريطانيا العظمى وايرلندا* دافع فيه عن نفع اليهود، مستخدمًا المنطلقات نفسها التي استخدمها لوتساتو.

ومن أهم المدافعين عن نفع اليهود، الفيلسوف مونتسكيو، حيث بين أهمية دورهم في العصور الوسطى، وكيف أن طرد اليهود ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم اضطرهم إلى اختراع خطاب التبادل لنقل أموالهم من بلد إلى آخر، ومن ثم أصبحت ثروات التجار غير قابلة للمصادرة، وتمكنت التجارة من تحاشي العنف، ومن أن تصبح نشاطًا مستقلاً، أي أنه تم ترشيدها.

ولعل أدق وأطرف تعبير عن أطروحة نفع اليهود ما قاله إديسون في مجلة سبكتاتور في ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ حين وصف بدقة تحول اليهود إلى أداة كاملة، فاليهود منتشرون في كل الأماكن التجارية في العالم، حتى أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي

تفصل بينها مسافات شاسعة، والتي تترابط من خلالها الإنسانية. فهم مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ. ورغم أنهم بغير قيمة في ذاتهم، غير أن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ هيكل البناء بتماسكه.

المسألة اليهودية وظهور الصهيونية

ذكرنا بعض العناصر الكامنة التي خلقت تربة خصبة لظهور الصهيونية، ولعل أهمها هو العنصر الأخير، أي تحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية نافعة في المجتمع الغربي لها وظيفة محددة.

عادة ما يظل وضع الجماعة الوظيفية مستقرًا حين يكون المجتمع في حاجة إليها، ولكن يختلف الوضع تمامًا حينما تطرأ تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية تجعل المجتمع أقل احتياجًا لها، أو في غنى عنها تمامًا، فيتحول أعضاء الجماعة من جماعة هامشية إلى جماعة منبوذة يود المجتمع التخلص منها بأي شكل. وهذا ما حدث ـ على سبيل المثال ـ لجماعة المماليك في مصر بعد ظهور محمد علي وتأسيسه لدولة مركزية لها جيش نظامي من أبناء الشعب، مما حول المماليك من أعضاء جماعة وظيفة عسكرية تدافع عن المجتمع (وتستغله في نفس الوقت) إلى جماعة طفيلية تعيش عالة عليه.

وقد حدث شيء من هذا القبيل للجماعات اليهودية الوظيفية في الغرب ابتداءاً من القرن السابع عشر حين بدأت التجارة تتحول إلى نشاط أساسي في المجتمع الغربي، وظهرت طبقة تجارية وبيوتات مالية كبرى بين أعضاء الأغلبية، ثم ظهر جهاز مصرفي ودولة مركزية قومية قوية تعتمد على مؤسسات حديثة، ففقد أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية وظيفتهم. فالبنوك المركزية والبيوتات المالية التابعة لمجتمع الأغلبية حلت محل المرابي اليهودي، الوظيفية وظيفتهم. فالبنوك المركزية والبيوتات المالية التابعة لمجتمع الأغلبية حلت محل المرابي اليهودي، والمصانع والمتاجر الحديثة حلت محل التاجر والحرفي اليهودي.

ونحن نرى أن هذا هو السبب الأساسي للمسألة اليهودية، تفاقمت لأسباب أخرى

من بينها ما يلي:

١ – تعثر التحديث في شرق أوروبا وبخاصة روسيا التي أصبحت تضم في بداية القرن التاسع عشر أكبر تجمع يهودي في العالم بعد أن ضمت أجزاء كبيرة من بولندا. وقد تعثر التحديث لأسباب عدة من أهمها سرعة معدلات النمو الاقتصادي في هذه المجتمعات، الأمر الذي لم يسمح لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية التي فقدت وظيفتها بالتأقلم مع النظام الجديد. كما أن عملية التحديث والدمج كانت تتم تحت إشراف الدولة بجهازها البيروقراطي المتخلف والمتعصب دينيًا والفاسد أخلاقيًا. وقد اصطدمت حركة عتق أعضاء الجماعات اليهودية بحركة تحرير الأقنان، إذ أدت الحركة الأخيرة إلى توفير عمالة رخيصة في المدن سدت سبل العيش أمام أعضاء الجماعات اليهودية، وضيقت رقعة الأرض الزراعية المتوافرة.

٢– ولكن هناك ـ إضافة إلى ذلك ـ بعض العوامل الخاصة بالجماعات اليهودية في شرق أوروبا لعبت دورًا حاسمًا في تعثر عملية التحديث، ولعل أهم هذه العوامل تخلفهم الحضاري الذي ربما لم يكن له نظير في أوروبا آنذاك بعد مئات السنين من الحياة في الجيتو، الذي ظل بمعزل إلى حد كبير عن التحولات الضخمة التي كانت تمر بها أوروبا منذ عصر النهضة؛ ولذا كانت الجماهير من أعضاء الجماعات اليهودية لا تمتلك الكفاءات اللازمة للاندماج في الاقتصاد الحديث، الأمر الذي جعلها تفشل في التكيف مع مجتمعاتها في شرق أوروبا. كما أن هذه الجماهير لم تكن مهيئة حضاريًا أو نفسيًا للتعامل مع التحولات الضخمة التي كانت المجتمعات الغربية تخوضها. وقد عمق هذا الإخفاق من إحساس هذه الجماهير بالعزلة مما ولد ما يمكن تسميته بالعقلية الجيتوية التي هي ـ أساسًا ـ حالة عقلية تعبر عن نفسها من خلال رفض المجتمع الحديث والتمسك بأشكال الحياة التي ألفها اليهود في الجيتو، وحققت لهم بعض الأمن والهوية.

٣– حدث انفجار سكاني بين يهود شرق أوربا في منتصف القرن التاسع عشر فتزايدت أعدادهم زيادة ملحوظة، ربما بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. ولم يتمكن اقتصاد روسيا الضعيف من استيعاب هذه الأعداد الكبيرة، وخصوصا بعد تعثر التحديث

في شرق أوروبا، وهو ما دفع بمئات الألوف من فقراء اليهود إلى أوروبا الغربية، الأمر الذي ولد الفزع في قلب حكومات غرب أوروبا وأعضاء الجماعات اليهودية فيها، ممن اندمجوا في مجتمعاتهم، وحققوا مكانة اجتماعية عالية ووضعًا اقتصاديًا مميزًا، (ونحن نذهب إلى أن عام ١٨٨٢، تاريخ صدور قوانين مايو في روسيا التي عبرت بشكل صريح عن تعثر التحديث في الإمبراطورية القيصرية الروسية وكرست عزلة اليهود، هو في واقع الأمر، تاريخ ظهور الصهيونية بين اليهود، وليس عام ١٨٩٧، تاريخ عقد المؤتمر الصهيوني الأول).

٤- عاش أعضاء الجماعة اليهودية في مناطق حدودية متنازع عليها من قبل الدول الغربية، فكانت منطقة ما تتبع بولندا بعض الوقت، ثم تتبع روسيا أو النمسا وهكذا. فمنطقة الاستيطان بأسرها كانت تابعة لبولندا، ثم ضمت إلى روسيا مع تقسيم بولندا، وجاليشيا كانت مقسمة بين بولندا والنمسا وهكذا. وقد أضعف هذا الوضع من ولاء أعضاء الجماعات اليهودية القومي، وجعلها غير متجذرة في أي مجتمع.

٥- كانت اليهودية الحاخامية تجتاز أزمة حقيقية، فقد تكلست تمامًا، وأصبح من العسير على اليهودي أن يكون يهوديًا وإنسانًا في الوقت ذاته (على حد قول أحد المفكرين اليهود). وقد انتهى الأمر بكثير من الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية بالانصراف عن عقيدتهم والانضمام للحركات الثورية أو العدمية. وقد ظهرت اليهودية الإصلاحية (والمحافظة)، وهي صيغ يهودية مخففة للغاية تخلت عن كثير من أصول اليهودية وثوابتها، وطرحت نفسها على أنها اليهودية الحقيقية.

وكان من الممكن، من الناحية النظرية على الأقل، حل مشكلة أعضاء الجماعات اليهودية أو التخفيف من حدتها عن طريق هجرة اليهود الذين يشكلون فائضًا إلى أماكن متفرقة من العالم، وبخاصة العالم الجديد، وبالفعل هاجرت أعداد هائلة بلغت أربعة ملايين يهودي (من ضمن ستين مليون أوروبي «فائضين»)، هاجر معظمهم إلى الولايات المتحدة. لكن ـ كما أسلفنا ـ حدث انفجار سكاني بين يهود أوروبا ويهود بولندا / روسيا على وجه الخصوص، فقد تضاعف عدد يهود العالم الغربي خمس مرات

بين عامي ١٨٢٥ و١٩٢٥ لتكون الزيادة أكثر مرة ونصف المرة من زيادة شعوب أوروبا، وقد حدّ هذا من أثر هجرة الأعداد الضخمة.

ومما زاد المسألة حدة وتفاقمًا موجات معاداة اليهود في منتصف القرن التاسع عشر، فخطاب أوروبا الحضاري وطريقة إدراكها للكون في عصر الإمبريالية كان ـ كما أسلفنا ـ عنصريًا، والعنصرية الغربية كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الخارج ضد شعوب آسيا وأفريقيا (السوداء والصفراء والملونة)، ولكنها ـ كما هو الحال دائمًا ـ توجهت أيضًا إلى الداخل (فالعنصرية رؤية متسقة مع نفسها لا يمكنها أن تميز بين داخل وخارج) فشملت في نطاقها الأقليات التي تعيش في أوروبا مثل الإيطاليين العاملين خارج بلادهم، والبريتون في فرنسا، والكاثوليك في دول بروتستانتية مثل ألمانيا، والغجر في كل أرجاء أوروبا، وقد نال أعضاء الجماعات اليهودية نصيبًا من هذه العنصرية باعتبارهم غير مسيحيين وأعضاء جماعة وظيفية بلا وظيفة.

وكان يهود غرب أوروبا بمعزل عن المسألة اليهودية وعن العناصر التي دخلت في تشكيلها، فالجماعات اليهودية في هذه البلاد كانت صغيرة، ولم يكن هناك تمايز اقتصادي أو ثقافي ملحوظ بين أعضائها وبين أعضاء الأغلبية؛ ولذا حققوا معدلات عالية من الاندماج ونالوا معظم حقوقهم الدينية والمدنية. ولكن وصول المهاجرين اليهود من شرق أوروبا كان يهدد مواقعهم الطبقية التي وصلوا إليها والمكانة الاجتماعية التي حققوها؛ ولذا أصابهم رشاش من المسألة اليهودية الشرق أوروبية، وأصبحوا يبحثون عن حل لها.